الترجمة العربية في نهضتها الأولى:
قراءة في كتاب (الفكر اليوناني والثقافة العربية)

ديمتري غوتاس

ت. د. نقولا زيادة

قراءة: هالة على

عادة ما تُصَوَّر نهضة الترجمة التي جرت في عصر المأمون وبلغت ذروتها بتأسيس «بيت الحكمة» على أنها الحدث الجديد، الفذّ، نسيج وحده. وأقصى ما يمكن أن تشير إليه كتب التاريخ التي وُضِعَت في العصر العباسي وتناولت حركة الترجمة اليونانية - العربية في الفترة العباسية المبكرة، هو ترجمة بعض الكتب أيام المنصور، وشيء من التنويه لما تمّ أيام الرشيد.

ويأتي هذا الكتاب الهام ليتناول بالنقد والتصويب هذه الصورة المنقطعة عن أي سياق تقتضيه حركة ثقافية كبرى مثل هذه الحركة، فيشير إلى ما كان من ترجمات شتى سبقت قيام الدولة العباسية، وفتحت الطريق ومهّدت لقيام حركة ترجمة يونانية ـ عربية في بغداد شكّلت مرحلة حاسمة في مجرى تاريخ البشرية، تعادل في أهميتها ما شهدته أثينا أيام بركليس أو النهضة الإيطالية أو الثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يقدّم هذا الكتاب دراسة وافية لهذه الحركة ويلقي الضوء على الخلفية الاجتماعية والسياسية لهذه الظاهرة المعقّدة التي كانت مرتبطة إلى حدّ كبير بتأسيس بغداد وقيام الأسرة العباسية هناك، وبالحاجات الخاصة للجماعات التي كانت في سبيل التكوّن تحت رعاية الأسرة العباسية والنخبة المجتمعية تلك الفترة.

ثمة، أولاً، أحوال مادية هيّأت الخلفية لحدوث حركة الترجمة وازدهارها. وقد قامت هذه الأحوال على حادثتين تاريخيتين بالغتي الأهمية هما: الفتوح العربية المبكرة في الفترة الأموية، والثورة العباسية. وذلك لأن الحاجز الاقتصادي والثقافي الكبير الذي كان يفصل العالم المتمدن لألف سنة خلت قبل ظهور الإسلام، والحدّ بين الشرق والغرب الذي أقامه النهران الكبيران، وخلق قوات متنافرة في كل من جهتيهما، انتهى إلى غير رجعة. وهذا ما أتاح الفرصة للمواد الخام والمصنوعات والمنتوجات الزراعية وعناصر الرفاهية والخدمات والتقنيات والمهارات والآراء والأساليب وطرق التفكير أن تنتقل بحرية.

أمر هام آخر أدّى إلى ازدهار اقتصادي أفادت منه الطبقات الاجتماعية كلها: هو الثورة الزراعية التي حصلت بفضل الوحدة بين الشرق والغرب، وإزالة الفواصل بين الهند وشرق المتوسط مما أدّى إلى انتقال أنواع متعددة من النباتات والخضار والفواكه، فضلاً عن تطوير الفنون الزراعية والاستخدام الأفضل للأرض.

كان لإدخال صناعة الورق إلى العالم الإسلامي دور بالغ الأهمية في نشر المعرفة عامة؛ حيث أن الأسماء التي أطلقت على أنواع الورق المختلفة كانت أسماء بارزة لبعض من حماة حركة الترجمة: الجعفري نسبة إلى جعفر البرمكي، والطلحي والطاهري اللذان يحملان اسم اثنين من العشيرة الطاهرية.

إن إزالة الحواجز بين الشرق وما إلى الغرب من أرض الرافدين، وحّدت مناطق واسعة تمتد من أواسط آسيا إلى جبال البرانيس في شبه

الجزيرة الإسبانية، كانت قد وقعت تحت تأثير الهلينية لألف سنة خلت منذ الاسكندر الكبير. فالإزالة الفعّالة لمصدر الخلافات والتمزق الثقافي (أي المسيحيين الخلقيدونيين الناطقين باليونانية، والممارسة الإقصائية اللاهوتية)، ثم توحيد الجميع بإمرة سيد محايد، هو الدولة الإسلامية، أفسحا الطريق لتعاون وتواصل ثقافيين أكبر؛ حيث لم تكن هذه الدولة تُعنى بالخلافات المذهبية المسيحية التي كانت تقيّد الحركة الفكرية في الإمبراطورية البيزنطية.

في الأيام السابقة على الإسلام كانت هناك مدن هامة قد احتفظت بتقاليد العلم اليوناني العلماني الذي يمثّله المتكلمون بالسريانية، والذي كان قد ثبّت مواقعه في مراكز المسيحية الشرقية عبر الهلال الخصيب من إديسا (الرُّها) وقنّسرين في الغرب عبر نصيبين والموصل في شمال الرافدين حتى جنديسابور في عمق غرب فارس. وهي مراكز دينية خرّجت العديد من العلماء الذين ظهروا أثناء الفترة العباسية المبكرة، ومثال على ذلك دير قنّا، جنوبي بغداد على نهر دجلة، وهو دير نسطوري كبير أسس المدرسة الأرسطية في بغداد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

كانت الحيرة أيضاً، قد احتفظت بتقاليد العلم اليوناني العلماني. وهناك مركزان آخران مهمان للعلم اليوناني ومكان لولادة حركة الترجمة اليونانية – العربية العباسية وهما حرّان (كاره) في شمال أرض الرافدين ومَرْوْ في أقصى الشمال الشرقي من فارس على أبواب آسيا الوسطى. أمّا في الإسكندرية فقد كان أعضاء مدرسة الطب يجتمعون يومياً لقراءة نص مشهور من كتاب جالينوس.

مع مجيء الإسلام تمّ ضمّ هذه المراكز جميعها سياسياً وإدارياً، والأهم هو أن العلماء القادمين من هذه المراكز كان بإمكانهم أن يتابعوا دراستهم ويتفاعلوا فيما بينهم بصرف النظر عن اختلاف دياناتهم. وكان هؤلاء

العلماء خبراء في حقولهم الخاصة، ويعرفون لغات متعددة، مما ساعدهم على نقل المعرفة دون ترجمة.

إن تولّي الأسرة العباسية السلطة ونقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، خلق ديمغرافية كانت سنداً وموصلاً لحركة الترجمة. فقد كانت الثقافة الرفيعة المنتشرة بين الجماعات الناطقة باليونانية، والتي كان الأمويون متصلين بها مباشرة، هي المسيحية الأرثوذكسية اليونانية التي كانت البيروقراطية البيزنطية الدمشقية تحذو حذوها وتعكسها.

مع قيام الثورة العباسية وبناء بغداد وانتقال عاصمة الخلافة إلى العراق، قام في بغداد مجتمع متعدد الثقافات أساسه المزيج السكاني المختلف ديمغرافياً، ويتألف من مسيحيين ويهود ناطقين بالآرامية، وناطقين بالفارسية في المدن، وعرب كان بينهم مسيحيون مستقرون فضلاً عن البدو في المناطق الزراعية شمال العراق.

وبقدر ما كان الأمويون مضطرين إلى الاعتماد على البيزنطيين المحليين والعرب المسيحيين لتسيير الإدارة، كان العباسيون الأوائل مضطرين إلى الاعتماد على الفرس والعرب المسيحيين والآراميين المحليين في إدارتهم للأمور، و كانت ثقافة هؤلاء قد تهلْيَنَت، دون أن يرافقها خصومة ضد العلم اليوناني الإثني. كما أدى نقل العاصمة من منطقة ناطقة باليونانية (دمشق) إلى منطقة لا تستعمل فيها اليونانية إلى نتيجة متناقضة، إذ تمّ الحفاظ على التراث اليوناني الكلاسيكي الذي كاد البيزنطيون يمحونه.

كانت الترجمة تُمارس في الشرق الأدنى منذ الألف الثالث قبل الميلاد، إذْ نُقلِت وثائق سومرية إلى اللغة الأكادية، كما أن ترجمة أعمال يونانية علمانية من اليونانية إلى لغات الشرق الأدنى، بما في ذلك العربية، كان أمراً قائماً قبل ظهور العباسيين. كذلك فالهلينية المتكلّفة بدأ ظهورها في اللغة السريانية في أعمال سرجسوس الراشعيني المتوفي سنة ٥٣٦م، الذي كان كاهناً وطبيباً ومترجماً. وكان قد تلقى علمه في الإسكندرية وكان يعتزم أن يكتب حول نواحي فلسفة أرسطو، كما كان معاصره

بويثيوس ينوي أن يقوم بمثل عمله في الغرب الناطق باللاتينية مع ترجمة جميع أعمال أفلاطون وأرسطو إلى اللاتينية مع تفسيرها. إلا أنهما أخفقا نسبياً، مقارنة بالمشروع الذي قام به الفلاسفة العرب ونجاحه الأخّاذ. وسبب إخفاقهما أنهما كانا يعملان دون دعم اجتماعي وسياسي وعلمي تخلقه بيئة تتطلب مثل هذا العمل، مثل المبادرة والإرشاد العلمي وإدارة الحركة التي خلقها المجتمع العباسي المبكر.

في العصر الأموي كانت نشاطات الترجمة اليونانية ـ العربية أعمالاً مجازفة وعشوائية تلبية لحاجات الزمن التي نشأت عن حكم العرب لشعوب غير عربية. كالوثائق الإدارية والبيروقراطية والسياسية والتجارية، وقد كانت شخصية وبدون تنسيق. وفي عهد الخلفاء العباسيين الأول فقط أتيح لحركة ترجمة مقصودة ومدروسة أن تنطلق. ولا بدّ أن الترجمات من السنسكريتية كانت كبيرة الأهمية بالنسبة إلى تطور الفلك في أيام الخلافة العباسية المبكرة؛ حيث تسبّبت في وجود عدد كاف من علماء عالميين قاموا بخدمة حركة الترجمة التي أطلق عنانها العباسيون الأوائل.

ثمة ترجمات من اليونانية إلى الفِهلوية، أي الفارسية المتوسطة التي استعملها الساسانيون، ومن ثم من الفهلوية إلى العربية، لأعمال علمية وفلسفية تعود جذورها إلى ما قبل الإسلام، ويعود اهتمام الساسانيين بالمعرفة اليونانية، إلى أيديولوجيا زرداشتية كانت ترى أن المعرفة جمعاء تعود جذورها إلى الـ أفستا (Avesta) وهو كتاب الزرادشتية المقدس، بالإضافة إلى أن أحد الفلاسفة اليونان الذين زاروا كسرى الأول (أنوشروان) وضع كتاباً يجيب عن أسئلته الفلسفية عن عدد من القضايا في الطبيعة على ما قال به أرسطو، ونظرية النفس والظواهر الجوية في كتاب يسمى دينكرد (Denkard)، كما نجد ترجمات من اليونانية إلى الفهلوية، تعنى بالتنجيم السياسي أو التاريخ التنجيمي.

كان قرار المنصور، باني بغداد والخليفة العباسي الثاني، أن يقيم وضعاً اجتماعياً في بغداد عبر فكرة عبقرية لإنشاء مدينة جديدة، فقد منح

نفسه حرية التصرف بأن يبدأ كل شيء من جديد، وهذا ما يدعى بالثورة. فهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية والمخطط لسياساتها التي ضمنت لها عمراً مديداً، وإليه يعزو المؤلفون العرب، على نحو عام، إطلاق حركة الترجمة ورعايتها.

كان على المنصور أن يضفي الشرعية على حكم الأسرة العباسية في أعين جميع الأحزاب، فهي أسرة متحدّرة من الأسرة النبوية، وفي الوقت ذاته خليفة الأسر الإمبراطورية في العراق وإيران من البابليين إلى الساسانيين. وعلى هذا الأساس تمكّن العباسيون من دمج الثقافة التي كانت سائدة في البلاد الواقعة شرقي العراق، مع المجرى الرئيس للثقافة العباسية. كان المنصور هو مهندس هذه السياسة.

ويُجمع الباحثون المحدثون على أن المنصور كان يتصف بالحكمة والحس السياسي، وقد وصفته المراجع بأنه كان يباشر جميع شؤون الحكم شخصياً، في الأمور الإدارية والحربية والاقتصادية، وكما حدث في بناء بغداد، الأمور الطبوغرافية والمعمارية. كما أنه على ما كان عليه من ذكاء طبيعي، وما يُعنى به من الثقافة خطيب مفوّه.

لقد قامت رعاية المنصور لحركة الترجمة على أسس ثقافية وإيديولوجية ترمي إلى توطيد سلطته وإدارة الإمبراطورية. وقد ساعده في ذلك: الإيديولوجية الزرادشيتة والتنجيم السياسي، وقد اتحدا واحدهما بالآخر، ليكوّنا حجر الزاوية في الأيديولوجيا التي أرادها المنصور للأسرة العباسية.

نشأت الحياة العباسية في وسط سكان ناطقين بالفارسية، وكانت الإمبراطورية الساسانية تعتبر نفسها وريثة الإمبراطورية الأخمينية الموغلة في القدم وصاحبة حضارة لا يشقّ لها غبار. وقد صاغت لنفسها إيديولوجيا وثقافة تعكسان هذه الصورة، حيث دوّن الأباطرة الساسانيون السجلات التاريخية والدينية التي خلفتها هذه الحضارة قبل أن تسقط في أيدي العرب المسلمين.

لكن اللافت هو أن الرواية الفارسية القديمة تقول إن الإسكندر لمّا تغلّب على الإمبراطورية الفارسية القديمة صادر المكتبة الفارسية الدينية (كتابات زرادشت الواردة في الأفستا) والأدبية والعلمية، وعمل على نقل المواد المهمة إلى اليونانية، ثم أتلف النصوص الأصلية كي يمحو أثر الدولة الأخمينية، وادّعى ومن جاء بعده، بأن هذا العلم يوناني أصلاً. وبالتالي فإن ترجمة هذا كله من اليونانية إلى الفارسية هو استعادة لمجد ديني وفكري عظيم.

اضطر المنصور لمواجهة الحركات المعارضة لقيام الدولة العباسية من عناصر السكان المحليين، وكبار الملاكين الميالين إلى إعادة نظم فارسية قديمة، فما كان منه إلا القضاء عليهم واحتواء إيديولوجيتهم واحتضانها. ومن أجل بناء بغداد على صورة مستديرة، يتوسطها قصره ويكون على أبعاد متساوية من جميع أقسام المدينة، فقد عُني بترجمة إقليدس ليطبق تخطيط المدينة. كما يبدو أنه اتبع النصيحة الواردة في الدينكرد (وهو كتاب زرادشتي)، ومفادها البحث عن المعرفة القديمة واستعمالها أنّى كان مصدرها. وبالتالي فقد كان حملة ثقافة الترجمة يشغلون أعلى المناصب في الإدارة.

كانت مكتبة القصر، في أيام الساسانيين، تقوم بدور الأرشيف الوطني: باعتبارها المكان الذي كانت الروايات الشعرية للتاريخ الإيراني والحرب والحب على أنواعه تُنسخ فيه وتُحفظ. ثم تحول في دولة العباسيين إلى مكتب إداري عباسي، نجح في «تنظيم» ثقافة الترجمة الفهلوية إلى العربية.

وحين جاء المهدي، رأى أن إيديولوجية الدولة العباسية يجب أن ترتكز على الإسلام، وقد كان المسلمون الذين وافقوا العباسيين أصغر أقلية دينية في الهلال الخصيب وفارس وما وراء ذلك: كان السبيل الوحيد لإخضاع الجماعة يكمن في الإقناع. وحيث أن المهدي تعرّض إلى خصوم محاورين أقوياء، كان بحاجة ماسة إلى «دليل» بالعربية يمكن أن

يعلّم فن المحاجة والمجادلة، فلم يكن أقل من كتاب المقولات لأرسطو، الذي أطلق مشروعاً بأكمله.

تولّى المأمون السلطة في أعقاب حرب أهلية بين الأخوين هزّت الدولة العباسية إلى الأعماق. غير أنه تمكّن من النجاح، ومن موقع قوة، لأنه سار على سياسة الاحتواء والتكيّف، التي كان من نتائجها تطورٌ لا حدّ له في الآراء والإيديولوجيات والنظم الفكرية، وكانت حركة الترجمة المنتفع المباشر من هذه السياسات، لأنها أصبحت تزود المسلمين بأدوات إيديولوجية لقتال البيزنطيين، الذين كثيراً ما يُروى أنهم حرّموا الفلسفة والعلوم. ومن هنا فإن تفوق الإسلام على المسيحية قد قام أصلاً على قبول المسلمين ثمرة حركة الترجمة.

ويتناول الكاتب في القسم الثاني من الكتاب علاقة الترجمة بالمجتمع: فقد اتضح أن الثورة العباسية والحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، وما تلا ذلك من نقاش ديني – سياسي خلقت، للأسرة العباسية والنخب الحاكمة، متطلبات كانت الإجابة عنها تتم عبر تبنّي حركة ترجمة واسعة المدى ورعايتها. من هذه المتطلبات عوامل تتسق مع الحاجة إلى المعرفة العلمية التي كان يتطلبها الجو البغدادي الذي كان يتطور بسرعة. فإلى جانب التنجيم الذي كان له أهمية كبرى في الأدوار الأولى لقيام الدولة العباسية، كان هناك حاجة رئيسية اجتماعية لدفع حركة الترجمة دفعاً قوياً، وقد فرض هذه الحاجة تدريب فئة من الكتّاب كان سيعهد إليها بإدارة الدولة التي ورثها العباسيون للتو. وقد ترتب على هؤلاء الكتّاب، لكي يتمكنوا من القيام بواجباتهم، أن يتقنوا مواضيع ذات صلة بالشؤون العلمية مثل المحاسبة ومسح الأرضين والهندسة ومراقبة مواقيت العمل، بالإضافة إلى العلوم الرياضية (كالحساب والهندسة وحساب المثلثات والفلك).

وهناك علم آخر تطوّر باكراً وهو الجبر، لإنه كان وسيلة أساسية لحل كل التفاصيل المعقدة لقانون الإرث. كما أثارت الكيمياء رغبة واضحة

في ترجمة نصوصها، إذ رُويت للخليفة المنصور أخبارٌ ثبت بطلانها فيما بعد عن تحويل الرصاص والنحاس إلى فضة وذهب. هكذا زوّد المنصور حركة الترجمة بالدافع الرسمي، وأصبحت الأموال متوفرة، وهذا ما جذب أعداداً من الباحثين ومكنّهم من العمل، وفيما كان هؤلاء الأفراد يتابعون بحوثهم، عبرت بهم مشكلات متعددة كان حلها يتطلّب ترجمات أخرى، ومن ثم فقد أصبحت حركة الترجمة آنئذٍ جزءاً من مشروع علمي بالعربية، يمتلك قوة الدفع الذاتي: إذ كان حماة الترجمة أنفسهم من العلماء.

أما الداعمون لحركة الترجمة فقد جاؤوا من جميع الفئات الإثنية والدينية: من ناطقين بالعربية والسريانية والفارسية ومن مسلمين ونصارى من جميع الأصناف. ومن المؤكّد أن الأسرة العباسية ومستشاريها الأقربين هم الذين وفروا الباعث الأصلي على العمل وقدموا مبالغ كبيرة من الدعم تالياً. أي أن حركة الترجمة كانت نتاج جهد جماعي قامت به الأغلبية التي كانت بارزة اقتصادياً واجتماعياً ـ هذا إذا لم يسهم به المجتمع بكليته ـ في بغداد خلال القرنين العباسيين الأولين، وذلك لأنها كانت تفيدهم في أغراضهم المختلفة، ولأن الترجمة باتت مهنة مربحة تجتذب أرفع المواهب يومها، ومن الممكن تبيّن أربع مجموعات من الداعمين أو الرعاة لحركة الترجمة هي: (١) الخلفاء العباسيون وأسرهم؛ (٢) رجال البلاط؛ (٣) موظفو الإدارة في الدولة والجيش؛ (٤) الباحثون والعلماء.

بعد مسيرة نشطة امتدت ما يزيد عن قرنين، أخذت حركة الترجمة في التباطؤ، وانتهت إلى التوقف، حيث فقدت أهميتها الاجتماعية والعلمية. لم يكن لديها ما تقدمه، بمعنى أنه لم يكن لديها كتب صالحة لتقديمها، مما يمكن أن يتلاءم مع اهتمامات الرعاة والباحثين والعلماء ومطالبهم على السواء. إن النصوص التي تشمل الموضوعات الرئيسية، في أكثر الحقول، كانت قد تُرجمَت. وازداد طلب الرعاة ليس على ترجمة أعمال

يونانية بل على مؤلفات عربية أصيلة، وأصبحت الأعمال المترجمة جزءاً من تاريخ العلم.

إن السيل العارم من الكتب المترجمة كان العامل الفاصل في صياغة الثقافة العربية الكلاسيكية في القرنين الثالث والرابع الهجري / التاسع والعاشر الميلاديين. وعلى نحو ما جرت عليه أية حركة في التاريخ ، كان قد بُدئ بحركة الترجمة واحتُضنت ورُعيت من داخل المجتمع العباسي على أيدي جماعات وطبقات اجتماعية في سبيل دفع قضاياهم ومصالحهم وسياساتهم إلى الأمام. أما المأثرة اللغوية الخاصة بحركة الترجمة اليونانية ـ العربية فتتمثّل في أنها أنتجت أدباً علمياً عربياً مع المفردة التقنية، وأوضحت أن الفكر العلمي والفلسفي شأن عالمي. ■